# سُورَةُ النَّازِعَاتِ

# سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤
فَالۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤ هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل
لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ
٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ
وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا
فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا
مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ
٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ
٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ
ضُحَىٰهَا ٤٦ ﴾ [النازعات:١-٤٦].

* تسمية السورة:

١- اسمها: «سورة النازعات»، وبعضهم يزيد الواو، فيسميها: «سورة ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾»[(١)].

٢- وقد يسمِّيها بعضهم بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «سورة الساهرة» [النازعات:١٤]، أو: «سورة الطامَّة»[(٢)] [النازعات:٣٤].

* عدد آياتها: ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون آية عند الجمهور[(٣)].

* وهي مكية بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية والقرطبي وابن الجوزي والقاسمي وابن عاشور وغيرهم[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٤) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

* ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات:١]:

هذا قَسَمٌ من الله بـ «النازعات»، وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على أقوال:

فمنهم مَن قال: هي الملائكة، ومنهم مَن قال: هي سكرات الموت، ومنهم مَن قال: هي الوحوش، ومنهم مَن قال: هي النجوم، إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

**والمختار أن «النازعات» وغيرها وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة** ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود وجماعة من السلف وأئمة التفسير[1].

أقسم الله تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿غَرۡقٗا﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها كما يُنتَزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، فتُنْزَع من أطرافهم نزعًا شديدًا، ولذلك يُقال لحالة الموت: إنها حالة النـزع، أي: الوقت الذي تُنْزَع فيه روحه من بدنه.

* ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات:٢].

و«الناشطات» هي الملائكة أيضًا، حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ ﷺ:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١).

«المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبينِ»[1]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣].

وهي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين أو غيرهم، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عز وجل.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

* ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤]:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه عطفًا، فـ«السابقات» هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، فالملائكة سَبَقت بني آدم بالإيمان: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وسَبَقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبَقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

* ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]:

أجمع المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات هنا: الملائكة؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ فمنهم مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالوحي، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بقبض الأرواح، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالحفظ، ومنهم مَن يكون مُوكلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾.. ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾.. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾» تسلسل طبيعي

---

(١) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة ﷺ.

في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيارنا لهذا القول، وهو أن المقصود بالقسم كله الملائكة، للأسباب الآتية:

١- إجماع المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

٢- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنْزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦-٧]:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه موجود في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبْعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القسم فيه قوة؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا أقسم بشيء فهذا دليل على أنه شيء عظيم، ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعندما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القسم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى

موضوع آخر، فقال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾: الراجفة هي النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل:١٤]، فهي صوت مُزَلزِل مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾، وهي صيحة أخرى بينهما ما شاء الله تعالى من السنين، والرادفة فيها إحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين.

* وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات:٨] أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة ﴿ قُلُوبٌ ﴾؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين.

والتعبير بالجمع يدل على كثرة هذه القلوب، وأنها ليست قليلة.

﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي: خائفة قلقة، كما وصفها بقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

* ﴿ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات:٩]:

لم يقل: (أبصارهم)، وإنما قال: ﴿ أَبْصَـٰرُهَا ﴾، أي: أبصار تلك القلوب، وهذا فيه معنى لطيف، وهو: أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف غالبًا كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر:

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها ... إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها[1]

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد، وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

والتعبير بلفظ: ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ له معنى خاص، فلم يقل: (ذليلة)، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات:٣٥]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾ [النازعات:١٠]:

وهذا المقال يقولونه والله أعلم في الدنيا.

---

(١) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص ٥٨)، و«فاكهة الخلفاء» (ص٢٦١).

فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾ أي: هل سوف نُرَدُّ إلى الحافرة؟

و﴿ ٱلْحَافِرَةِ ﴾: إما الحياة الدنيا، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: (فلان رجع إلى حافرته)، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون: هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى[1]؟

* ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾ [النازعات:١١]:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نخرة ثم بُعِثوا، ولذلك يقولون: ﴿ أَءِذَا كُنَّا ﴾ أي: في المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذا لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا مستبعدين البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح ثم تعود مرة أخرى في الدار الآخرة بإذن ربها.

---

(١) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٣٦٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ١٩٩)، و«الجمهرة» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (ح ف ر) (١١/ ٦٤، ٦٨، ٦٩).

* ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات:١٢]:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلاحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ ﴿ قَالُوا ﴾، ولم يعبِّر بـ (يقولون)؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها نتيجة حجتهم التي كانوا ينازعون بها، فناسب أن يورده بالفعل الماضي.

* ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [النازعات:١٣]:

فيه إشارة إلى أن الأمر يسير، ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]، أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره: ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، بل الأمر: ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾، أي: على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

* ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]:

و«الساهرة» على قول الجمهور: الأرض. وبعضهم يقول: هي أرض الشام. والصواب أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها، إشارة إلى أن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح البيان» (١٥/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٣).

قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ [النازعات:١٥]:

هذا خطاب للنبي ﷺ، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عليه السلام هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين[1]: كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة سيدنا محمد ﷺ، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومن وراءهم.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ معناها: «قد أتاك»، فهو سؤال للتقرير، فيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي، واختار الله تعالى قصة موسى عليه السلام لأمرين:

١- تسليةً للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

٢- تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦]:

ذُكِرَت قصة موسى عليه السلام مختصرة في هذه السورة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكَرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا الله تعالى لم يذكر أول قصة موسى، وإنما

(١) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (١/ ٣١٣)، و«في ظلال القرآن» (١/ ٦٦، ٢٦١)، (٣/ ١٣٢٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٠/ ١١٢).

بدأ من وقت نداء الله لموسى عليه السلام فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾، والله تعالى نادى موسى، وسمع موسى نداء ربه، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه:١٢]، وقال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٤-١٦].

ولك أن تتصور إنسانًا من خلق الله يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر منها بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجه، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قبسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه جلَّ وعزَّ مباشرة.

كما وقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]، ولتكرار التكليم لموسى سُمِّي بـ «الكليم».

و﴿ طُوًى ﴾: اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك[1].

وقد وصفه الله عز وجل بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين.

وهو بقرب جبل الطُّور.

* ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧].

«فرعون» واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨)، (٢٤/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٩)، (٣١/ ٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٥).

«إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف عليه السلام، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ «الملك»، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٥٤]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦]، فكان يُسمَّى بـ «الملك»، ولم يكن يُسمَّى بـ «الفرعون».

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم «فرعون» الذي أُرْسِل له موسى عليه السلام، والكثيرون منهم يقولون: إنه يُسمَّى: «رمسيس الثاني».

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث»، رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو «ابن رمسيس الثاني»، والمشهور: أنه «ابن رمسيس الثاني»[1].

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى عليه السلام هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر، وترى الجسد كله كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لمَن خلفه آية.

---

(١) ينظر: «قصة الحضارة» (٢/ ١٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٤٦٨)، و«التفسير الوسيط» (٥/ ٣٤٢)، (٧/ ٢٦٧)، (١٠/ ٣٧٤)، (١٢/ ٢٧٨).

وكلمة «فرعون» هي كلمة مركَّبة من لفظين: الأول هو: «فر»، ومعناه: القصر أو المبنى الفخم. والثاني: «عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

وقد وصف الله تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد بأمرين:

١- عصيان الله عز وجل؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

٢- استعباد الناس.

والطغيان تمرُّد على الله وظلم لعباد الله.

* ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عليه السلام الأدب في الدعوة، فقال له: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨].

وجملة: ﴿هَل لَّكَ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ إشارة إلى أن هذا أمر يخصُّك أنت وحدك، والله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، يعني: أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

* ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٩]:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة

كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسواك وعدلك.

وقول موسى: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠]، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: ٢١]:

فيه إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

﴿وَعَصَىٰ﴾ العصيان: نتيجة طبيعية مرتَقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢-٢٣]:

التعبير بـ: ﴿يَسْعَىٰ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على هذه الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية

الأخرى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الأعراف:١١١]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول على خلاف ظاهره، أي: أنه كان يقول: أنا سيدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى[1].

**والأرجح** -والله أعلم- أن قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ على ظاهره، ولا يعني بالضرورة ادعاء أنه مبدع الكون وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨]»[2].

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨].

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس بتصريح مشبع باليقين: ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨]، لكنه قال في الأخير بعد أن استتبَّ له الأمر: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾، وهذه أشنع كلمة قالها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠٢/ ٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين.

* ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النازعات:٢٥]:

الفاء تدل على التعقيب، وقوله: ﴿ نَكَالَ ﴾ أي: عقابًا مُنَكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ هي: الدار الآخرة، وإنما قدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، ﴿ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة[1].

أما الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيرى أن المقصود بـ ﴿ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ هي الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، ﴿ وَٱلْأُولَىٰ ﴾: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، وهذا له وجه، وأولى منه ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[2].

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٦]:

أي: في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، ففرعون كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق:١٥].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣).

وهذه بعض العبر التي تضمَّنتها القصة:

١- في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾، إشارة إلى أهمية الاعتبار بالحوادث، وأن يعتبر الإنسان بتاريخ الأمم السابقة؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل هو نمط من الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر:٢]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه ... أضافَ أعمارًا إلى عُمْرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَرْ ... ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبر

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

٢- يقول تعالى عن آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، ومع ذلك خاطب موسى وهارون في دعوتهما له، فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن واعظًا جاء إلى أحد الخلفاء، فقال له: إني ناصحك، فمُشدِّد عليك في النصح. فقال له: رويدك؛ لستَ بخير من موسى، ولستُ بشرٍّ من فرعون، وقد بعثه الله إليه وأمره بالرفق، فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾.

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة ومفهوم القسوة، فبعض الدعاة يأخذون بصور من القسوة، ويرون أنها من صور القوة في الحق، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللين ليس ضعفًا، و«**الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

فالهدوء في لغة الخطاب، وفي التدرج، وفي البحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»[1].

ويقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا ينبغي للداعية أن يستخدم اللين في دعوته.. الابتسامة.. الكلمة الطيبة.. تحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرج بحيث يهيئ نفسه أن هذا الذي يستمع لنصحه لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج الأمر إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز المرء على قبول النصح مع الحفاظ على إنسانيَّته وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان رضي الله عنه رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبي ﷺ من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[2] قال يوم الفتح: «**مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ**»[3]. مع أن الناس ليسوا بحاجة إلى الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي

---

(١) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥).

(٢) أي: لم ينقصه شيئًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرافض للإسلام.

فإياك إياك أيها الداعية أن تظن أن دعوة الإنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته ومكانته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر:

ولو أنَّ فرعونَ لما طغى وقال على الله إفكًا وزورا

أنابَ إلى الله مستغفرًا لما وجدَ اللهَ إلا غفورا[1]

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتبر دليلًا أو دلالًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

٣- قضية الطغيان: قد أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[2].

بل أقول -عن مشاهدة ومراقبة للنفس-: إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا ثم غفل عنها قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من معاني التعاظم والطغيان، ولو كانت متستِّرة، وبعضها يتضخم تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

---

(١) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص ٨٨١) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي.

(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠)، و«الفوائد» لابن القيم (ص ٧٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤).

وكثير من ألوان الطغيان وإن كانت خفيفة، إلا أنها لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، ومرة أخرى بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العجب[1] والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه.

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦]. إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه وتعالى في الطغاة، فإن الله تعالى جعل من حكمته الصراع في أهل الدنيا، وأن هؤلاء الطغاة -من أمثال فرعون- هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عليه السلام لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِثَ إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بذكر، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياتنا اليومية يلاحظ نوعًا من المصادرة، ويجده كثيرًا في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، بل وتستخفُّ وتستهين بها، وإن كانوا يتظاهرون أن عندهم قَدْرًا من الواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى الحكمة في مقارعة هذا الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

---

(١) المراد: مداخله.

٥- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه قد تعاقب على الحكم عشرون أسرة من الأسر الفرعونية.

وفي هذا حكمة ربانية؛ فهؤلاء الناس على رغم ما هم فيه من الطغيان والظلم، إلا أن الله أذن لهم بالبقاء والاستمرار بعد هلاك فرعون؛ لأن الحكمة الإلهية والناموس الكوني يقتضي ذلك، وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك -مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «**ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟**». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «**فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم**». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصيامه[1]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]:

وعَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في نفسه، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] جاءت هذه الآية مبيِّنة لجانب من جوانب عجز الإنسان مهما طغى وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو ذهبت إلى آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت من آثارهم شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت من حيث عظمته وقوته إلى ما تشاهده في ملكوت السموات والأرض؟!

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، أي: أقوَّتُكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

و«السماء» تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، وقد يكون المقصود: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مجرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجر عن أن يحيط بأبعادها ونجومها ومجرَّاتها، فضلًا على أن يقيس نفسه بها، ولهذا قال: ﴿بَنَاهَا﴾، أي: أن هذا الوصف للسماء إشارة إلى قوتها وإحكامها، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات:٢٨]:

و«السَّمْك»: السقف، فالله تعالى رفع سقف السماء، وسوَّاها، أي: جعلها مستوية ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن في هذا دليلًا على كروية الأرض والسماء؛ لأن عدم

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (س م و) (١/ ٢٩٠)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠١).

التفاوت والتسوية إنما يكون في الجرم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[1].

* ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات:٢٩]:

قوله: ﴿ وَأَغْطَشَ ﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، والليل هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾، والضحى هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا.

* ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٣٠]:

أي: بعد خلق السماء، وقد اختلف العلماء في أيِّهما خُلق أولًا؛ السماء أم الأرض، فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية، وذهب آخرون -وهو الأرجح- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:٩-١١].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما[2]، مع أن الآيات

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٠)، (٦/ ٥٦٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦-٤٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٨٤).

تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

و«الدحو» هو: البسط والتهيئة، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن للناس أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل:٧٩]، فهو الذي يمسك السماوات والأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

* ومن معاني «الدحو»: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠-٣١]، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى -أي: الطعام والشراب-، ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: أن الله تعالى جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، وحتى مع حركة الأرض فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى أن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها، فلا تميل ولا تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن

وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات:٣٣]:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٧-٣٢]، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها هي محصلة سنة إلهية لطيفة كان من جرائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

* ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٤]:

﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ هي الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، والمقصود: القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1].

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: (فإذا جاءت القيامة)؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات:٣٥]:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، وهذا التذكر يكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٢٢)، (١٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤١٢).

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢].

وهناك أمر آخر وهو: أن الإنسان يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر، وقد ذكر النبي ﷺ قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، وهو في ذلك الموقف يقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه[1].

* ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٦]:

والمقصود هنا الكافر، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها هي أيضًا تراهم، قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان:١٢]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرعب، وإنما رؤية الطمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧]:

مثل فرعون، كما تقدم: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧]، وفيه تعريض بالطغاة في مكة الذين كانوا يحاربون دعوة النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٠).

* ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النازعات:٣٨]:

أي: استحب الحياة الدنيا على الآخرة، وقدم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وهذا يُظهر سرَّ الطغيان؛ فإن الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي.

* ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٩]:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إلى النار.

* ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠]:

وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقوله: ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ إما أن يكون المقصود خاف من ربه سبحانه وتعالى، فاستحضر عظمته ومشاهدته له، فكفَّ عن المعصية، ومَن همَّ بالمعصية، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ[1]»[2].

---

(١) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/١٤٨): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أجلي».

(٢) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فعلامة الخوف من الله أن يترك العبد المعصية حيث لا يراه إلا الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود من ذلك الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟ وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنى وتشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذِّبُه**»(١). وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

* وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين خافوا مقام ربهم، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢]:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى رُسُوُّها؟ و«الرُّسُوُّ» عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

والمقصود بالسائلين هنا هم كفار مكة، فقد كانوا يسألون عن الساعة ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

أما اليهود والنصارى، فقد كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة، لكن سؤالهم كان سؤال تعجيز.

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس رضي الله عنه، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**». قال: حبُّ الله ورسوله، قال: «**أنت مع مَن أحببتَ**»[1].

أناس يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرؤى والأحلام والظنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية.

والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل.

* ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٣]:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه:١٥].

* ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٤]:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي من أمره ومنه وإليه.

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

شأنك أن تحدِّثهم عن أشراطها، وتَحُثَّهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل عليه السلام: «**قال: فأخبرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبرْني عن أمارتِها؟...**»[1]. يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

* ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥]:

قرأ الجمهور (مُنذِرُ)، وقُرِئت (مُنذِرٌ) بالتنوين[2]، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

* ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]:

«العشيَّة»: تُطلَق على ما بين زوال الشمس إلى غروبها، و«الضحى»: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

وذكر عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [المؤمنون:١١٣]. ومرة: «عشرة أيام». ومرة: «ساعة من نهار». قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]. وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمَّروا في الحياة الدنيا، فمنهم مَن قال: «لبثنا عشرة أيام»، وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: «لبثنا يومًا»، وبعضهم قال: «إنما هو بعض يوم»، وبعضهم قال: «إنما هي عشية أو ضحاها»، أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٥).